

الفتوة الإسلامية

الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

—•••••—

عرفوا الفتوة في اللغة بأنها : السكرم والسخاء ، والشجاعة والروءة ، فإذا عرفنا أن هذه الفضائل الخلقية كانت جماع الشرف والحمد في البيئة العربية أدركنا أن « الفتوة » كانت دلالة النبيل والسمو في تلك البيئة . واقد قالوا « لا فتى إلا على » ، يمتنون أنه كرم الله وجهه كان غاية في إدراك هذه الفضائل والسمائل ، على أننا نجد معنى « الفتوة » فيبعد الصدر الأول الإسلام قد انقسم في دلالاته فأصبح يضم إلى ما سلف من الفضائل الخلقية فضيلة الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، وبهذا انتقلت « الفتوة » من طور إلى طور ، فالفتى في الطور الأول كان فرداً غابته أن يفعل ما يكسبه الحمد في قومه ، وأن يحافظ على شرفه الذي هو شرف قبيلته ، أما في الطور الثاني فإنه أصبح فرداً يعيش لغيره ويؤثره على نفسه ، أو كما نقول في اصطلاح العصر : فرداً يعيش للجماعة ، وقد حدد الشاعر العربي هذا المعنى إذ يقول :

فإن فتى الفتيان من راح وانغدى لضر عدو أو لنفع صديق
ويظهر أن « الفتوة » قد ابتدأت تتميز في البيئة الإسلامية كظاهرة من ظواهر المجاهدة ، وكرحلة من مراحل التصوف ، على عهد الحسن البصري ، ومما يؤثر عن الحسن قوله : « كان الفتى إذا نسك لم نعرفه بمنطقه وإنما نعرفه بعمله » ، وبهذا المعنى تكلم في « الفتوة » جعفر الصادق ، ثم الفضيل ، ثم الإمام أحمد ، ثم سهل ، فالجنيد ، وأضرابهم من الصوفية . قال علي بن أبي بكر الأهوازي « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحداً » ، وقال القشيري : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في أمر غيره » ، وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » إن الفتوة هي كسر إبراهيم للصنم ، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .. وهكذا نجد « الفتوة » قد اتخذت في البيئة الصوفية مظهراً بلائيم تلك البيئة في اتجاهاتها وفي أهدافها ..

والكلام على ما كان من نظام « الفتوة » في محيط الصوفية

يحتاج إلى حيز كبير ، وقد يقتضى ذلك كتاباً برمته ، فحسبنا تلك الإشارة العابرة ، لأننا نقصد في هذا المقال إلى الكلام عن « الفتوة » إذ تمثلت في المجتمع الإسلامي نظاماً له أهدافه السياسية والاجتماعية والخلقية ، وقد كان ذلك على عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وهو الذي فرغ لهذا الأمر وتولى تديره بنفسه ، فأهدر ما كان من أوضاع الفتوة السابقة ووضع لها نظاماً عاماً ينتظم الأكارب والأصاغر والخاصة والعامة ، وجعل نفسه القبلة في هذا والمرجع ، وأرسل إلى الملوك والأمراء على أن يأخذوا بهذا النظام ، قال « أبو الفداء » في حوادث سنة سبع وسبعمائة : « وفي تلك السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ^(١) ، ويلبسوا له سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق ويجعلوه قدوتهم ... » ، ويقول أبو المحاسن ابن تيمزى بردى في النجوم الزاهرة : « وفي أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة ببغداد ورمي البندق ولعب الحمام المناسيب ، وافتن الناس في ذلك ، ودخل فيه الأجلاء ثم الملوك ، فألبسوا الملك المادل ثم أولاده سراويل الفتوة ، ولبسها أيضاً الملك شهاب الدين صاحب غزنة والهند من الخليفة الناصر لدين الله ، ولبسها جماعة آخر من الملوك . . »

ولعل ابن الساعي هو المؤرخ الوحيد الذي فصل ما كان من عمل الناصر في ذلك ، واقد حفظ لنا هذا المؤرخ العظيم صورة من العهد الذي أذاعه هذا الخليفة على رؤساء الأحزاب بتماليم الفتوة وما حدث لها من التمايل والأوضاع حتى لا يتمدوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الناس ^(٢) . وقد كان من خير ذلك العهد أن الفخر الملوى كان رفيقاً للوزير ناصر ابن مهدي ، وكانت له رفاة ، فاختصم أحد رفقائه مع رفيق امر الدين نجاح الشراي ، ووقعت بذلك فتنة عظيمة بين الفريقين ، حتى تجالدا بالسيوف ، فانتفى هذا إلى الخليفة الناصر فأنكره ، ونقدم إلى الوزير يجمع رؤوس الأحزاب ، وأن يكتب في ذلك كتاب يؤسرون فيه بالمرور والآلفة ، وينهون عن التضامن

(١) هو كما نقول في هذه الأيام يشربون نخب نلان .

(٢) لم يصلنا من تاريخ ابن الساعي إلا جملة عطفولة جمعها المنور له أحمد تيمور باشا وهي تبدأ من حوادث سنة ٥٩٥ هـ وتنتهي بحوادث سنة ٦٠٦ هـ وعليها اعتمدنا في نقل تلك النصوص .

وهوى ، وإذا قتل الفتى فتى من حزبه سقطت فتوته ، ووجب أن يؤخذ منه الفصاص عملاً بقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » ، فإذا قتل غير فتى رفيقاً من الرفاق أو عوناً من الأعوان ، أو منتسباً إلى ديوان في بلد الخليفة المفترض الطاعة على كافة الأنعام ، فقد عيب هذا القاتل بالقتل ووجب الفصاص منه على كل فتى راجح . .

وفي الختام يشير العهد إلى ما يجب على الرقعة من العمل بموجبه والجري على مقتضى الأمور به والوقوف عند المحدود فيه ، قال ابن السامى « وقد سلم إلى كل واحد من رؤساء الأحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة ثلاثين من المدول ، ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما صورته : قابل العهد بما تضمنه هذا المرسوم المطاع ، وقابله بما يجب عليه من الانقياد والامتثال والانباتع ، وهو الذى يجب العمل به فتوة وشرعاً ، وهذا المعروف من سيرة الفتيان نقلاً وسماعاً ، وقد ألزمت نفسى إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الأمرى ، فتى جرى ما يتألف الأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً لى والمؤاخضة مستحقة على ما يراه صاحب الحرب ثبت الله دولته وأعلى كلمته ... » .

لم تكشف لنا النصوص الواردة عن حقيقة القصد الذى كان يهدف إليه الناصر من إنشاء هذا النظام للفتوة ، أو على الأصح من إنشاء هذه الجمعية التى كانت فى نظامها أشبه ما تكون بالجمعيات السياسية والحربية ، ولهذا يرجح الباحثون أن الناصر كان يقصد بذلك إلى إحياء الروح الحربية فى النفوس ، وإقامة قوة يمكن أن يقف بها فى وجه أولئك الأعاجم الذين أخذوا يتخطفون الامبراطورية المربية من كل جانب ، ويعملون على إزالة معالم الخلافة الإسلامية . غير أننا نرى جميع المؤرخين القدماء الذين كتبوا فى سيرة الناصر وأعماله قد عابوه بالانصراف إلى هذا الأمر ، حتى يقول أبو الفداء إنه « كان قبيح السيرة منصرف المهمة إلى رمى البندق والعلطور المناسب وبأس سراويلات الفتوة » ، وإنهم ليدركون عنه فى ذلك حكايات تصوره مثلاً أعلى فى اللهو وسقوط المهمة والانصراف عن مهمات الأمور . والمؤرخون القدماء لا شك معذرون فى هذا التقدير ، لأنهم تعودوا أن يروا الخليفة مثلاً للاستقرارية التعاليم ، فهو شخص لا عمل له إلا أن يجلس

والتباعد ، ويقراً بمحضر منهم ، ويشهد عليهم بما يتضمنه ، فن خالفه أخذت سراويله ، وأبطلت فتوته ، وعوقب بما يستحق ، ويمتدح هذا العهد وثيقة نادرة تكشف لنا عن الحدود التى رسمها الخليفة الناصر لنظام « الفتوة » الذى أقامه ، وتبين لنا ما وضع لهذا النظام من هدف وغاية ، فى ديباجة هذا العهد يشير إلى شئ من تاريخ الفتوة ومرجعها وأصلها فيقول : « من المعلوم لدى لا يتارى فى صحته ، ولا يرتاب فى وضوح براهينه وأدلتها ، أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، وإليه دون غيره ينسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته الشريفة النبوية نسج الرفقاء والإخوان ، وأنه كان عليه السلام مع كمال فتوته ووفور رجاحته يقيم حدود الشرع على اختلاف مراتبها ، ويستوفى من أصناف الجناة على تباين جنائياتها ، وملها ومذاهبها ، غير مقصر عما أمر به الشرع الطهر وقدره ، ولا مراقب فيما رتبته من الحدود وقرره ، امتثالاً لأمر الله تعالى فى إقامة حدوده ، وحفظاً لمناظم الشرع وتقويم عموده ، فإنه عليه السلام فعل ذلك بما رأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أخبار الصحابة وجمع ، فلم يسمع أن أحداً من الأمة لاه ، ولا طعن عليه طاعن فى حد أقامه ، وحقيق بمن أودته الله مقامه ، وناط به شرائع الدين وأحكامه ، وانتمى إليه عليه السلام فى فتوته ، واقتضى شريف شيمته ، وكريم سجيته ، أن يقتدى به عليه السلام فى أفعاله ، ويحتذى فيما استرعاه الله تعالى واضح مثاله ، غير ملوم فيما يأتيه من ذلك ، ولا ممارض فتوة وشرعاً فيما يورده ويصدره » ثم يشير العهد إلى المراسم المفروضة « على كل من تشرف بالفتوة برفقة الخدمة الشريفة المقدسة المنظمة المجيدة الطاهرة الزكية الأمامية الناصرة لدين الله تعالى » ، وكل هذه المراسم دعوة إلى الألفة والمحبة ، وإلى أن يكون الرفاق فى عون بعضهم بعضاً ، فن كان له رفيق قتل نفسه زكية بنير إنهم بادر بالخروج من رققتة ، لأنه بهذا الإثم خرج عن دائرة الفتوة ، ومن حى قاتله وأخفاه وساعده على أمره تنزل عنه كبيره وتبرأ منه ، ومن حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريق الشرع فقد ضل

في صدر الديوان بأمر وينهى ، ويمنع ويمنع ، فكان من الغريب في تقديرهم أن ينصرف الناصر إلى هذا التدبير ، وأن يبذل له كل هذه العناية ، وأن يعنى بتعميم ذلك النظام الحربى الرياضى بين الطبقات ١١

على أى حال نستطيع أن نقول إن الناصر قد وضع نظاماً للفتوة الإسلامية كان في الإمكان أن يحدد شباب الدولة العربية وأن ينهض بها من عوامل الانحلال التي تسربت إلى جسمها ، ولكن يظهر أن أحداث الزمن في تلك الأيام كانت أعنف وأغلب . على أن هذا النظام قد امتدت أصوله في البيئات الإسلامية ، وعمت آثاره آماداً من السنين ، فأنتا نجد الرحالة ابن بطوطة بعد عهد الناصر بقرنين ، أى في القرن الثامن الهجرى يتحدث عن جميات الفتوة وانتشارها في بلاد الأناضول ، ويثنى عليها ثناء مستطاباً ، وكانوا يسمون بالأخوية الفتيان (١) ، قال ابن بطوطة « وهم يجمعون البلاد التركمانية والرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالزوار من الناس وأمرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعة وغيرهم من الشبان الأعزب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً ، ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرير وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشتررون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافة لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالندو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأئمة ، ولم أر في الدنيا أجل أفملاً منهم ، ويشبههم في أنماهم أهل شيراز وأسفهان ، إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر ، وأعظمهم إكراماً له وشفقة عليه .. »

(١) واحد الأخية أخرى على لفظ الأئمة إذا أضافه التكلم إلى نفسه .

ومن ثم نرى أن الفتوة الإسلامية قد تطورت إلى نظام اجتماعى إنسانى أشبه ما يكون بنظام الماسونية من جهة ، وبنظام التعاون الاجتماعى من جهة أخرى ، كما نرى أن الفتوة الإسلامية قد تملفت في البلاد الإسلامية وانتشرت بين الطبقات ، ولو كان هناك القائد المنظم الذى يعمل لاستغلال تلك الجماعات على وضع محدد الهدف والغاية لأجدت كثيراً من الخير على العالم الإسلامى ، ولكنها انتهت في آخر الأمر إلى ما يشبه نظام الزوايا الذى وضعه الصوفية ، ويظهر أنها تلاشت في هذا النظام على مر السنين .

على أننا نرى في المصور المتأخرة نظاماً شاع بين الطبقات ، وهو الذى عرف في البلاد العربية « بمشيخة فتوة » وهو نظام كان يقوم على قوة الساعد والمضل ومزاولة بعض الأعمال الرياضية والفروسية .

وبعد ، فهذه صفحة من تاريخ الفتوة الإسلامية ، عرضناها على القراء مجملة ، لأن المقام لا يحتمل الشرح والتفصيل ، ولعلنا نعود في فرصة أخرى إلى تجلية بعض النواحي في هذا الموضوع الذى عنى به المستشرقون أكثر مما عنى به أبناء العروبة .

محمد فرهمى عبد اللطيف

أنا غريب

بقلم الأستاذ

جبيب الزحلاوي

مجموعة من روائع القصص

تطلب من مكتب التوزيع ٥٣ شارع إبراهيم باشا